

المحاضرة الثامنة

❖ نظرية الشعر (أرسطو، لوكاتش، وغولدمان):

جاءت لفظة شَعَرَ في اللغة بمعنى عَلِمَ. وليت شعري أي ليت علمي أو ليتني علمت...
وأشعرتُ به: أطلعت عليه، وشعَرَ لكذا إذا فطن له.

أما في الاصطلاح: الشِعْرُ: منظوم القول، غلب عليه لشرفه بالوزن والقافية... وقال الأزهري: الشعر القريض المحدود بعلامات لا يجاوزها، والجمع أشعار، وقائله شاعر لأنه يشعر ما لا يشعر غيره أي يعلم... وسمي شاعرا لفطنته.¹

لقد عدّ الشعر منذ القديم قوة فعالة مؤثرة، لدرجة أنّ المجتمعات الإنسانية على اختلاف انتماءاتها و لغاتها قد أولته الاهتمام البالغ دون غيره من أنواع التعبير، والشعر يعتبر فرع خاص في نظرية الأدب يمتلك حضوره التاريخي الطويل للغاية، وقد كان الشعر باكورة عمل أسس لنظرية الأدب ومع أرسطو على وجه التحديد.

1 - نظرية الشعر عند العرب:

كان الشعر عند العرب لسان حالهم من العصر الجاهلي وفي العصور التالية على اعتبار أنّ أدب اللغة العربية كما يرى جمال الدين بن الشيخ منذ العصر الجاهلي حتى بداية القرن العشرين هو أدب شعري تماما، استغرقت استمراريته خمس عشرة قرنا، وقد اقترن الشعر عند العرب القدامي بالإنشاد أي أنّ الذي بدا شفويا غير مكتوب كان مصحوبا بالغناء، ويتم إنشاده والرقص عليه مصحوبا بالألات الموسيقية، وهذا يعلّل أهمية الإيقاع والوزن في الشعر العربي القديم، يقول ابن خلدون: " كان الغناء في الصدر الأول من أجزاء الفنّ، لأنّه تابع للشعر، إذ الغناء إنما هو تلحينه، وكان الكتاب والفضلاء من الخواص في الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصا على تحصيل أساليب الشعر وفنونه".

- ينظر، لسان العرب، ابن منظور، مج4، ص:409، 410.

ثم مع نزول القرآن وبداية التدوين انبرى مجموعة من فحول النقد والأدب والفلسفة للتأصيل
لنظرية الشعر فظهرت مفاهيم مختلفة اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، فابن قتيبة في بيان
ركني الشعر يقول: " تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب: ضرب منه حسن لفظه ومعناه،
وضرب منه حسن لفظه وجلا معناه، وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه، وضرب
منه تأخر معناه وتأخر لفظه". ويفهم من هذا التعريف أنّ ابن قتيبة يقصر النظرية الشعرية
في اللفظ والمعنى.

ويرى قدامة بن جعفر الشعر أنّه: " موزون مقفى ذو معنى". والشعر عند الحاتمي في حدود
أربعة عناصر: اللفظ والمعنى والوزن والقافية. و الجرجاني في وساطته لا يخرج عن: "
شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف، والمقاربة في
التشبيه. إضافة إلى الطبع والروية والذكاء والدرية"، والمرزوقي الذي لم يخرج عما ارتآه
الجرجاني، فرأى الشعر في شرف المعنى وصحة المعنى وجزالة اللفظ واستقامة المعنى
والإصابة في الوصف، وقوة الطبع،² وكذلك الشأن مع الفلاسفة المسلمين، فابن سينا يرى
الشعر كلام مخيّل مؤلف من أقوال موزونة متساوية وعند العرب مقفاه. ويسير ابن رشد
والفارابي على خطى ابن سينا في تعريف الشعر.³

و كلّ من هذه التعاريف وغيرها التي لم أذكرها تمكن للشعرية العربية من جهة أسس طرق
الإبداع وهي:

__ اللعب بأدوات اللغة والكلام.

__ الخضوع لقواعد الجنس الأدبي.

__ وفرة ضروب الأغراض.

- ينظر، شرح ديوان الحماسة، المرزوقي، ص:10، 9.²
³ - ينظر، فن الشعر (مع الترجمة العربية القديمة وشروح الفارابي وابن سينا وابن رشد)، أرسطو طاليس، تر: عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت-لبنان، 2001م، ص:196-199.

وهنا نخلص إلى أنّ النظرية الشعرية العربية لم تسع إلى تحديد المعنى في النص بل عملت على ضبط قواعد وأسس يقوم عليها الشعر تمثلت في مجملها في دعامتين أساسيتين هما: اللفظ والمعنى، والوزن والقافية.

1 - نظرية الشعر عند الغرب:

عرف الشعر دلالات متعددة في النقد الغربي نتيجة المراحل الزمنية التي قطعها منذ أرسطو إلى جيرار جينيت، وإذا تحدثنا عن تطور نظرية الشعر في فترات ما قبل التاريخ فيمكن الكشف عن اتجاهين متضادين متعارضين: الاتجاه الأول يظهر في آراء أفلاطون التي تقف موقف المثالية، وهو موقف "استطاع أن يدرك التمييز بين نقد المضمون ونقد الشكل، وأن يصوغ بعض أصول النقد الأدبي الأساسية... وأن يفرق بين الفن والتقنية، ويضع ثلاثة معايير للفن الجيد تتمثل: في تأثيره الأخلاقي، والمتعة التي يحدثها، ومدى الصحة في محاكاته"⁴.

أي ربط الشعر بكل ماهو نافع مفيد وخير، وظهرت هذه الفلسفة مع مصطلح ما يسمى المحاكاة. يقف أفلاطون إلى جانب وجهة النظر التي ترى أنّ الشعر ملهم من ربة الشعر ولا يد للشاعر فيما يقوله، وعليه فالشاعر مجرد مزور مضلل ضار بالمجتمع السليم لا يمتلك الحقيقة، وعليه فهو أخط من الفلسفة.

والاتجاه الثاني في تطور نظرية الشعر يظهر في آراء أرسطو التجريبية⁵ معتمدا على المحاكاة التي نادى بها أفلاطون. يقف أرسطو إلى جانب وجهة النظر التي ترى في الشعر الفائدة العملية وليس الخير المطلق بل المتعة الحاصلة بسبب المعرفة، رافضا بذلك آراء أستاذه أفلاطون التي ترى أن الشعر ملهم من ربة الشعر، ومؤكدا على أنه " فن ينشأ عن ميول فطرية في الإنسان"⁶ وعليه فهو يمتلك الحقيقة أيضا لكن بمنطقه الخاص.

✓ نظرية الشعر عند أفلاطون:

⁴- فن الشعر، أرسطو، ص:21.

⁵- ينظر، المصدر نفسه، ص:21.

⁶- المصدر نفسه، ص:30.

أقام أفلاطون نظريته الشعرية على نظرية الإلهام أي أنّ الشاعر لا يمكنه نظم الشعر إلاّ إذا حلّ فيه روح الإله، ولهذا يرى أنّ الشعر لا قيمة إلاّ إذا التزم بضوابط هي:

_ الصدور عن عاطفة مشوبة.

_ مصادفة الروح الخيرة الساذجة الطاهرة.

_ أن يكون حاملا للخير والفضيلة والمنفعة من منظور أخلاقي لا فني.

_ أن يكون موصلا للحقيقة.

_ اعتبار الفلسفة أعظم من الشعر لأنها صادرة من العقل وهذا الأخير صادر عن عاطفة.

كما نجد أنّ أفلاطون لم يولي اهتماما بالجانب الشكلي في الشعر.

✓ نظرية الشعر عند أرسطو:

إذا كان أفلاطون في الفلسفة المثالية التي نادى بها قد أطاح بالشعر جاعلا منه أحط من الفلسفة، فإن أرسطو يرى أنّ الشعر أعظم فلسفة من التاريخ لأنه يخبرنا بما سيكون لا بما هو كائن " فهو يروي الكلي، بينما التاريخ يروي الجزئي "،⁷ وإذا كان أفلاطون قد انتصر للمنفعة من منظور أخلاقي إصلاحي، فإن أرسطو انتصر للمنفعة الفنية، وإذا كان أفلاطون قد ربط الشعر بقوى خارجية عن الإنسان أو عزها إلى عالم الغيب والميتافيزيقا من خلال الإلهام والوحي من ربة الشعر، فإن أرسطو أوعزه إلى الطبيعة الإنسانية لقوى داخلية، المتمثلة في غريزة الإنسان في المحاكاة للموسيقى والإيقاع والنغم، " فهو فن ينشأ عن ميول فطرية " ⁸.

لقد أعاد أرسطو من خلال فلسفته المادية الاعتبار للشعر، واستطاع أن يدرك فيه ما لم يدركه معلمه أفلاطون، وما أدركه أرسطو هو الجانب الفني من الشعر حيث قيمة الجمال، وتجلّى الصدق، أو الحق، بشكل آخر يختلف عن تجليه في الفلسفة أو المنطق.

ويرى أرسطو أنّ نشأة الشعر كانت لسببين اثنين:

المحاكاة: غريزة.

- فن الشعر، أرسطو، ص: 69.7
- المصدر نفسه، ص: 30.8

المتعة: لذة التعلم.

ومن منطلق هذا الذي وصل إليه أرسطو راح في كتابه فن الشعر يؤصل لظاهرة الشعر مدركا خصوصيته، منبها على منفعتيه متكلمًا في القوانين التي تضبطه، وإن كان أرسطو طاليس _ على حسب رأي حازم القرطاجني _ قد كان اعتناؤه بالشعر لا يخرج عن المذاهب اليونانية، والتي كانت أغراضا محدودة في أوزان مخصوصة مقارنة بالشعر العربي،⁹ ومنه حاول هذا الأخير استنباط أسس نظرية متماسكة، فبدأ بتقسيم الجنس الشعري إلى أنواع أساسها:

الشعر الملحمي: المدائح.

التراجيدي: يجمع بين الملحمة، والشعر الديثرمبي.

الكوميدي: شعر الأهاجي.

الديثرمبي: الترانيم الإلهية.

لقد تناول أرسطو المادة أولا لأنها هي التي تحدد نوع الفن، فمن الممكن أن يتناول فنانون مختلفون نفس الموضوع، لكنهم يختلفون أساسا من حيث المادة الموظفة.¹⁰ والمقصود بالمادة هنا اللغة والوزن والإيقاع أي العلة الشكلية أو الصورية، أو البناء الصحيح الخاص به الذي بمقتضاه يدل الكلام على موضوعه، ثم رأى أنّ الحكم على العمل الشعري من خلال النظر في تأثيره على الإنسان الذي يحظى بعقل سليم وتعليم جيد.¹¹

ثم عرج على الأسلوب فاشتراط فيه الوضوح وعدم التبذل. يقول: ومع هذا فإن اللجوء إلى توليفة معينة من بعض تلك العناصر غير المألوفة، أمر ضروري للأسلوب، لأن استعمال الكلمة الغريبة النادرة والمجازية والزخرفية، وسائر الأنواع الأخرى، ينقذ اللغة من الابتذال والركاكة".¹²

- ينظر، في نظرية الأدب، شكري عزيز ماضي، ص:247.⁹

- فن الشعر، أرسطو، ص:62.¹⁰

- ينظر، المصدر نفسه، ص:29.¹¹

- ينظر، المصدر نفسه، ص:19.¹²

لقد استطاع أرسطو بفكره الثاقب أن يؤسس نظاما مفاهيميا علميا من أجل دراسة الشعر دراسة فنية جمالية نفعية، في إطار فلسفة المحاكاة بشقيها: محاكاة الأشياء والأفعال في نطاق الطبيعة، ومحاكاة خارج نطاق الطبيعة أي الخيالي، معتبرا " المعايير التي تطبق على الشعر غير تلك التي تطبق على السياسة وغير التي تطبق على الصنائع الأخرى "13.

ولا شك أن هذه المفاهيم التي جاء بها أرسطو كانت أساسا مهما للنقد الغربي المعاصر، كما أنها انتقلت به إلى مرحلة تطويرية ناضجة، مدعمة بمناهج جديدة في التنظيم، وبأفكار أصيلة وعميقة.14

ويمكن القول أن " شعرية أرسطو بقيت دوما مثلا يحتذى به في كليات التصنيف التنظيري، لأنها أعمال فلسفية تقارب الظاهرة الأدبية واصفة كنهها".15

ونجد اللاتيني هوراس في كتابه فن الشعر لا يبتعد كثيرا عما أرسى قواعد الإغريق وبالتحديد أرسطو فقد رأى الشعر في مراتهم مؤكدا أن ربة الشعر قد وهبت الإغريق النبوغ، وحبهم بالمقدرة على صياغة الكلام المكتمل التنغيم، ثم لم يأل جهدا أن راح يضع شروطا لتحقيق اكتمالية البناء الأدبي الفني في أشكاله وتركيبه الداخلي، فمن حيث الشكل لا بد أن يتصف بـ: الوضوح، الوحدة، البساطة، والانسجام.

أما من حيث المحتوى فبـ: الأفكار السليمة، والتصوير الصادق لطبائع الناس. مركزا فيها على اكتمال بنائية الموضوع في وعي الفنان وفي محتوى العمل الفني نفسه.

أما نظرية الشعر في الفكر الغربي الحديث فتتوعدت الآراء النقدية حولها، فالفرنسي بودليير (1867-1821) يرى أن موضوع الشعر هو الشعر نفسه أي الصياغة وقوة الابتكار.

✓ نظرية الشعر عند جاكسون (1896-1982):

تتجلى نظرية الشعر عند رومان جاكسون من خلال كتاباته القيمة مثل: (الشعر الروسي الحديث) (1921م)، و(حول الشعر التشيكي) (1923م)، و(أبحاث في

- المصدر نفسه، ص: 142.13

- ينظر، المصدر نفسه، ص: 22.14

- شيطان النظرية، : أنطوان كومبانيون، تر: بلقاسم عيساني، ص: 18.15

اللسانيات العامة) (1963م)، و(ثمانية أسئلة حول الشعرية) (1977م)، وهي كتابات أرسى دعائمها على أسس علمية موضوعية في ضوء مقارنة بنيوية لسانية، وكان هدفه الأساس هو البحث في أدبية النص استبدالاً وتأليفاً.

لقد ركز جاكسون في دراسته الشعر على الأدبية (Littérarité)، والقيمة المهيمنة، والعناصر البنيوية التي تميز جنساً أدبياً عن الآخر، في ضوء مقارنة بنيوية لسانية، لكن ليس كالبنيوية السويسرية التي تهتم بدراسة اللغة فقط، بل ببنيوية تربط اللغة بوظائفها السياقية والاستعمالية من خلال البعدين: البعد البشري والبعد الأدبي. أي الوظيفة الاجتماعية والوظيفة الشعرية.¹⁶

وعلى هذا النحو ركز جاكسون كثيراً على دراسة الشعر لسانياً، باحثاً عن قواعده وقوانينه بمقارنته بالكلام اليومي، فربط اللغة بستة عناصر: المرسل والمرسل إليه، والرسالة، والقناة، والمرجع والسنن، وربط كل عنصر بوظيفة معينة. ليصل في تعريفه للشعرية على أنها أدبية الأدب. ثم راح يتعمق في دراسة الشعر في ضوء العناصر البنيوية، سواء أكانت صوتية أم صرفية أم إيقاعية أم تركيبية أم دلالية، أم بلاغية، في نسق تفاعلي كلي، تترايط فيه العناصر البنيوية جميعها إيجاباً وسلباً، تفكيكاً وتركيباً. ضمن المحورين الاستبدال والتكبيبي.¹⁷

على أنه من أجل أن نتناول عملاً شعرياً من وجهة نظر جاكسون ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار القيمة المهيمنة (La valeur dominante)، وهو مفهوم يقصد به العنصر البؤري للأثر الأدبي الذي يحكم، ويحدد ويغير العناصر الأخرى، ويساهم في تلاحم البنية.¹⁸ والمقصود بها هنا الوظيفة الشعرية التي تطغى على باقي الوظائف الأخرى كالتواصلية وغيرها وإن تضمنتها، وهذه المهيمنة في رؤية قد تتحدد بالصوتي أو الصرفي أو الإيقاعي أو التركبيبي أو الدلالي، أو البلاغي، أو غيرها من الخصائص البنيوية الأخرى.

16 - ينظر، مدارس علم اللغات، ابن رشد المعتمد و خريص محمد، المكتبة الثقافية، الدار البيضاء- المغرب، ط1، 1993م، ص:49.

- ينظر، نظرية الشكلانية في الأدب والنقد والفن، جميل حمداوي، ص:50. ¹⁷
18 - ينظر، نظرية المنهج الشكلي(القيمة المهيمنة)، ، رومان جاكسون: ص:81.

و من هذا المنطلق يمكن القول أنّ رومان جاكبسون قد استطاع أن يري دعائم نظرية شعرية وفق مبادئ بنيوية لسانية تربط اللغة بوظائفها السياقية والاستعمالية، وفق القيمة المهمة.

وبالانتقال إلى شعرية جيرار جينيت gerard genette (1930 - 2018م) فهي عنده بلاغة جديدة للخطاب الأدبي، أو ما أطلق عليها تسمية النص الجامع أي شبكة نصية منسوجة من جميع نواحيها بشبكة جامع النسيج وهو البنية الفوقية أي النص، وليس ما يطلق عليه نظرية الأجناس الأدبية، كما هي مع تودوروف.

أمّا تودوروف todorov (1939م) فالشعرية عنده هي القوانين العامة للأدب، فهو يرى أنّ المقاربات البنوية لا تكفي أي الأخذ باعتبارات أخرى غير السياق اللفظي الألسني كالسياق الاجتماعي التاريخي مثلا، فالشعرية بهذا المفهوم لا تسعى إلى تحديد المعنى في النص الأدبي بل تعمل على البحث في القواعد التي تحكم في نشأة العمل الأدبي.¹⁹

- ينظر، مفهوم الأدب ودراسات أخرى، تودوروف، تر: عبود كاسوحة، ص: 5-33.¹⁹